الزار

لحضرة الأستاذ أسعد لطفى حسن

يحسبه البعض نوعا من التطريب أو لونا من ألوان الموسيقى ، ويعده الآخرون علاجا للصرع وضعاف الأعصاب . ويزعمه المغرقون فى الجهالة وسيلة لصرف الجن عمن أصابهم مس من الجن .

وهو فى بيوت الأغنياء فرصة من فرص البذخ والتفاخر ، وفى بيوت الفقراء نكبة ومجلبة للتداين والضنك . ويرى كثير من الناقدين — وأنا من أوائلهم — أنه فن من فنون الوثنية والكفر بالله .

وإذا كان لكل شيء فى هذه الدنيا ناحيتا خير وشر ، وكانت ناحية الخير الوحيدة فى الزار أنه يهدئ الأعصاب المضطربة ، فإننا نؤمن مع ذلك بأن شره أكثر من خيره ، وإثمه أكبر من نفعه .

وإنه لمما يدعو إلى القلق والتشاؤم ، أن الزار يفشو ويتغلغل فى بيوت الفقراء والأغنياء على الرغم من تقدم المدنية ومطاردتها لكل ضار من التقاليد وكل خبيث من العادات .

ولم يقتصر الإيمان بالزار على النساء ، بل تجاوزهن إلى الرجال ، وأصبح صناعة تدر الرزق الوفير على عدد كبير من الدجالات والدجالين . وأولئك حريصون على استبقاء هذا المعين الدرار ، فهم يجدون فى تشجيع إيمان الناس بالزار ، ويبثون فى العقول أن فيه شفاء كل علة ، وحسم كل مشكلة ، ويوهمون البسطاء أن الزار ليس عملا دنيويا ماديا ، وإنما هو وحى روحانى سماوى ، وأن لكل آدمى من الذكور " قرينة " من إناث الجن ، ولكل أنثى من الإنس "قرينا" من العفاريت ، وأن ما يصيب الإنسى فى جسمه أو عقله من أذى ، إنما هو من فعل القرين أو القرينة ! وينصب الدجالون أنفسهم وسطاء بين الإنس وعشرائهم من الجن ! ومن السيدات عندنا مؤمنات بهذه المزاعم ، فاذا سقط طفل أو طفلة على الأرض فبكى ، أسرعت أمه إلى التقاطه أو التقاطها وهى تردد الرقية النسائية المحفوظة " وقعت على أختك أحسن منك " أو " على أخوك أحسن منك " والأخت والأخ هنا هما " القرينة "

أو " القرين " وكأنما الأم بهذا القول ترضى قرينة ابنها أو قرين ابنتها ، أو تستعطفهما على الطفل العزيز !

ويذهب بعض الأمهات فى اجتناب غضب "القرناء" إلى حد الإضراب عن كثير من الأعمال المنزلية العادية ، وكثيرا ما يتجنبن تنظيف الغرفات فى الليل خشية تجريح رؤوس " القرناء " ، وهم جن فى رأى سواد النساء ، وملائكة فى رأى بعضهن !

و يعمد النساء إلى الدجالين والدجالات ، من مدعى الوساطة بين الإنس والجن ، لمداواة جميع العلل والأمراض العصبية ، والعقم ، وحفظ قوى التناسل ، واستمالة الرجال إلى النساء ، أو اجتذاب النساء إلى الرجال .

وأولئك الوسطاء يسمون الجن " أسيادا " ، لما يزعمون لهم من سيادة وهيمنة على أجسام من يلبسونهم أو يلازمونهم ، وأغلبهم من النساء .

وتلقب الوسيطة عادة "بالكودية" أو "شيخة الزار"، وهذه تبلغ أهل المصابة أوالمصاب رغبات "السيد" ومطالبه، التى لابد من إجابتها قبل أن يعفو عن المصاب، أو قبل أن يرضى بالجلاء عن جسمه بعد أن لبسه لبسا ، واحتله احتلالا !

وللكودية مهارة فى تأدية مهنتها ، كسبتها بالمران و بالتغلغل فى مختلف الأوساط ، ولها سحر عجيب ينفذ إلى قلوب النساء، ولها لباقة فى تحديد مطالب "الأسياد" وتقديرها بما يتناسب مع ميزانية كل أسرة، و بالجملة فالكودية ممثلة من أبرع الممثلات وأنجحهن فى ابتزاز الأموال .

وتبدأ الرواية بأن تذهب المريضة أو من تتوهم فى نفسها المرض . إلى "الكودية" تطلب منها الشفاعة عند " الأسياذ " ثم تخرج من حضرتها وقد تلقت منها تعليمات دقيقة ، أهمها أن تبيت ليلتها وقد لفت حول عنقها منديلا اصطلح على تسميته " الأثر " (وينطقنه الأتر بفتح الهمزة والتاء) وفى الصباح تذهب "الكودية" إليها فتنزع من عنقها هذا المنديل أو هذا " الأثر " وتعود به إلى دارها زاعمة أنها ستنتظر زيارة " الأسياد " لها فى منامها خلال ليلتها المقبلة ، وتسمى هذه الليلة " التبييتة " وأنها فى هذه المقابلة المنامية ستتفاهم مع " الأسياد " وتلتمس صفحهم عن المريضة ، وذلك بعد أن تعرف جنسيتهم وديانتهم ومناصبهم فى دولة الجن . أى : هل "السيد" مصرى أم سودانى أم مغربى (وهو الغالب) ، وإذا كان مصريا فهل هو "بحراوى" أم صعيدى ! ثم هل هو مسلم ، أم مسيحى ، أم يهودى (وما أعقد المشكلة إذا كان على غير دين المصابة !) ثم هل هو ملك ، أم أمير ؟ ومن سادة الجن أم من فقرائهم ؟ ! وهل هو حاد المزاج أم دمث الأخلاق ؟ و بقدر ماتختلف طوائف "الأسياد"

وأديانهم ومنازلهم الاجتماعية ، يكون اختلاف مطالبهم وشروطهم ، فمنهم قانعون ومنهم طامعون ، ومنهم رحماء ومنهم قساة !

فإذا ما انتهت الكودية من مرحلة الاستخبارات وجمع المعلومات — وربما استغرقت هذه المرحلة ليالى معدودات — أفضت بها إلى ضحيتها المسكينة وأدلت إليها بالمطالب ، والويل للريضة إذا قصرت فى تأديتها ، فلا رحمة يومئذ ولا أمل فى الشفاء . والمطالب فى العادة ، هى تقديم قطع من الجواهر أو الذهب أو الفضة أو النحاس ، كل بقدر ما تعرف الكودية من طاقته . وعلى ذلك فالبيوت الغنية لا يمكن إعفاؤها من تقديم النفائس المصنوعة من الذهب الخالص ، كسوار وحجال ودمالج وخواتم ، تضاف إليها الملابس الفاخرة الثمينة ، من كوفية موشاة ، إلى عباءة تتدلى منها خيوط الذهب ، إلى عقال أو قفطان من الحرير النقى ، الى ما وسع الغنى من تحف وبدائع . وإذا كان "السيد" نصرانيا دخلت فى مطالبه الصلبان الذهبية أو الفضية ، والمسوح والأردية الكنيسية ، وتظل المطالب تتواضع بقدر ما تتواضع ميزانية الأسرة أو ترق حالها .

ولا تقدم هذه الهدايا إلا فى حفل رائع جامع ، يدعى اليه الأهل والجيران والأصدقاء والصديقات ، لابسين أو لابسات أغلى وأبدع الثياب ، متقلدين أو متقلدات ألمع وأثمن الجواهر ، وإذا ما حضرت "الكودية" استقبلت أروع استقبال ، وكانت هى قطب الحفل ومرمى الأبصار ، وهنالك يطلق البخور ، وينفح المكان بأطيب الروائح والعطور ، من مسك إلى ند إلى عود ، وتتجاوب فى الأفق دقات الدفوف والطبول ، إذ تنزل إلى "الميدان" صويحبات المصابة وأترابها "الملموسات" أو "المعذورات" ، وقد ارتدين ثياب الزار — وللزار زى مقرر معروف — ويبدون فى أحسن زينتهن وأجمل حليهن ، وما تلبث صاحبتهن أن تترنح أعطافها برنين الدفوف ، وإذا الجميع يرقصن رقصات متناسقة مع دقات الطبول ، وقد أخذتهن نشوة روحانية عجيبة ، وجعلت صاحبة الدار تطوف حولهن ممتطية جملا أو حملا أو جديا — حسب اختيار الأسياد — وبعد عدد من الطوفات ينحر هذا الحيوان تحت قدميها فتلتهب روح الحماسة ويشتد الضرب على الدفوف ثم تؤذن "الكودية" بين مرح الجميع وابتهاجهم برضا "الأسياد" وعفوهن . ثم توزع صنوف من الحلوى والفاكهة ويتقدم الكل بعد ذلك إلى سماط فاخر يحوى ألذ وأشهى ما تستطيع الأسرة إعداده من أطايب الطعام . وربما دامت هذه الحالة أياما أو أسابيع .

ومن البديهى أن كل ما يقدم إلى "الأسياد" من حلى وملابس وغيرها ، يذهب غنيمة باردة لشيخة الزار .

هذا عرض موجز لمهرجان الزار و بواعثه ومقدماته . ومن هـذا العرض يتبين لك أن فى هذه البدعة أضرارا واضحة لا يجوز أن تغمض عنها العيون .

ففيها من الناحية الدينية إفساد للعقائد، لأنه إذا ثبت فى وهم المرأة أن هناك قوة غير قوة البشر تبرئ المريض وتشفى المريض وتغير مصائر الناس ، كان ذلك نوعا من الاشراك بالله ، لأن المؤمنين لا يعرفون فوق قدرة الإنس إلا قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

وهى من النواحى المالية والخلقية والصحية شر مستطير، فانها تستنفد مالا كثيرا وتثقل كاهل الأسر وترغمها على الاستدانة لتأدية "المطالب" الباهظة التى يريدها "الأسياد" أو المحتالات باسم "الأسياد" وما أشد الحرج الذى يقع فيه عميد البيت حين تبدو من زوجته هـذه الرغبة المرذولة ، رغبة إقامة الزار . هو بين أمرين : أحلاهما مر ، فإما استسلم للرغبة النسائية التى لا ترحم ولا تقدر العواقب ، فآذى نفسه واضطربت أحواله المالية ، وفقد كرامة زجولته بهذا الخضوع لإرادة النساء ، و إما ضرب صفحا عن هـذا العبث فوقع بينه و بين ابنته شقاق ، أو بينه و بين زوجته طلاق ، وكم من أسر هانئة هدّ الزار كيانها هدا ، إما بإفقارها و إما ببذر بذور العداوة والبغضاء بين أفرادها .

ولا يسلم العفاف من أذى فى هذا المحفل الصاخب ، فإن النساء اللواتى يحضرنه من خليط من الصالحات والفاجرات ، وعدوى النساء للنساء أسرع تأثيرا من عدوى الرجال للنساء .

و إذا استفادت أعصاب المصابة من قرع الطبول أودق الدفوف، فإن جسمها قد يناله أذى شديد إذا كانت ممن يشربن دم الذبيحة ساعة نحرها ، وشرب الدم عادة قبيحة يمجها الذوق وتنكرها قواعد الصحة ويحرمها الدين ، ولكنها عادة الكثيرات من النساء لا من المصابات وحدهن بل من الزائرات والمتفرجات .

وأولئك يقضين فى الرقص زمنا طويلا قد يصل إلى ساعات ، وهذه الإطالة فيه تضر أكثرهن ، لا سيما إذا كن مصابات بضعف فى القلب .

وعجيب أن تكون مهنة الكودية من المهن الحرة التى لا تمتد إليها يد الحكومة بالمطاردة والتحريم ، وليس يكفينا ما نراه فى بعض الأسر المثقفة من انصراف عن هذه البدعة السيئة فإنه انصراف بطىء غاية البطء ، وهذه المهنة لا تقل شرورها عن شرور السرقة والنشل وبيع المخـدرات ، وإنى لأعدها تلاعبا بالدين وسطوا على العقول وابتزازا للأموال واتجارا بالكرامات والأعراض .

ومما يخجل له كل مسلم ، أن "الجن أو الأسياد" المزعومين ، لا يلبسون غير الأجسام المسلمة ، إذ لم نسمع أن مسيحية أو يهودية شكت من معاكسة الجن لها أو عبث الشياطين بها ، ولعمرى إننا لنظلم الجن أفدح الظلم حين نخشى شياطينهم ، وما يصيبنا السوء إلا من شياطين الانس .

ولست بآسف على شيء كأسفى على جعل بيوت الله مواطن لهذا الرجس ، فان فى مدينة القاهرة أضرحة أولياء ، تكاد تكون مخصصة للزار وأمثاله من المنكرات كحمل الأطفال إلى الضريح زعما من أمهاتهم أن الولى يشفيهم من أمراضهم كأن المستشفيات لا وجود لها ولا خير فى طبها ودوائها ! أو كالتوسل إلى ذلك الولى ليهدى الابن الضال أو يكشف عن المتاع المسروق أو يرئ العقيم من عقمها أو يوفق بين الزوجة وزوجها ، أو ما الى ذلك من فاسد المعتقدات .

ولقد علمت من أنباء الزار أنه يقام فى مسجد أبى السعود بالقاهرة وهناك تحدث مخاز وفواجع . إذ يجتمع الرجال والنساء ، ويتلاصق الفتيان والفتيات ، ويختلط المرضى بالأصحاء ، وذلك فى ليلة الثلاثاء من كل أسبوع . ومثل هـذا الفجور من زار وغيره يقع فى مسجد المغربى بحى بولاق ، وفى مسجد الشيخ يونس بقرافة باب النصر ، وفى مسجد البيومى عقب صلاة الجمعة .

والزائر لأضرحة السادة : أولاد عنان والخضيرى والكاشفى وغيرهم ، يرى من الأضاليل والخرافات ما يؤلمه ويملؤه خجلا .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن بجانب الزار أوبئة أخرى ، فإن أعيننا تقع بين حين وآخر — حتى فى المعارض المنظمة المحترمة — على من يلعبون بالنار ويحملون جمراتها بين أيديهم ، ومن يأكلون الزجاج والثعابين . وكثيرون من الأجانب يرون هذه المناظر المزرية فيحكمون على مجموع الشعب المصرى حكما قاسيا .

لست أعرف هل فى تشريعنا ما هو كفيل بمنع هذه الموبقات ، وتحرير الشعب من ربقة المشعوذين والمشعوذات ، وتطهير الأذهـان والعقائد من هذه الضلالات ، فان كان فى التشريع ما نريد فقـد وجب أن نطالب الصرامة فى تطبيقه ، والحزم فى مطاردة مخالفيه ، وإلا فمن حقنا أن نطالب بإيجاد مثل هذا التشريع .

وعلى رجال الدين أن يتناولوا هذه الشرور فى مواعظهم ويحذروا الناس من أثرها السيئ فى دينهم ودنياهم .

ولما كانت حقيقة الحال فى أمر الزار أنه معالجة للأعصاب ، لا صرف للجن كما هى الخرافة الشائعة، فان على أطباء الأعصاب والأمراض الناشئة من ضعفها أن يولوا هذا الموضوع عنايتهم، إذ الثابت أن للألحان والأنغام تأثيرا نفسيا على بعض الأجسام، وقد يكون فيها إزالة للهم أو طمأنينة للقلب ، كما أن للموسيقى أثرا مجربا فى شفاء الأمراض العقلية . وفى مستشفيات أوربا التى تعالج مرضى العقول أوقات مخصصة لسماع الموسيقى ، كما ترى فى مستشفى هاندول بانجلترا. بل إن فى أحد مستشفيات سويسرا مجموعات من الطيور المغردة يصغى المرضى إلى نغماتها وهى فى أقفاصها أو وهى غادية أو رائحة فى الفضاء الفسيح، أو متنقلة بين الأشجار والأفنان ، فيأخذهم الطرب ، ويقع تغريدها من نفوسهم موقعا جميلا يكون له فضل كبير فى إزالة ما حل بعقولهم أو بأعصابهم .

وبعد هذا فان للدعاية الصحية الكاشفة عن أضرار الزار وغيره من العادات المستهجنة فائدة جليلة فى مكافحة هذا الداء الاجتماعى الوبيل، سيما إذا صحبها عرض أفلام تمثل مختلف الحالات والآثار .

* * *

هذا أيها القراء ، منكر لا أملك تغييره بيدى، فلأحاول تغييره باللسان ، "ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين"

أسعد لطفى حسن